

تموز - ايلول ١٩٤١

العدد التاسع والثلاثون

الأرض والأعمال الزراعية

في بنائه وسوريته

على العهد اليوناني - الروماني*

بقلم الاب رينه موترد اليسوعي

مدير معهد الآداب الشرقية

مستقبل البلاد في زراعتها .

ان كم تردد على مسامنا هذا القول ، كلما تناولنا البحث في موارد لبنان وسورية ! وما لا شك فيه ان ارض الساحل الفينيقي ، وارض سورية اجمالاً - وقد خلت من المعادن الثمينة خلوها من البترول - لا يمكنها إعاشة سكانها إلا بالزراعة . والاراضي فيها صالحة للزروعات ، وهي وافرة الحطب ، اذا ما اعثني بتنظيم ربيها . ثم انها ، بفضل ما اختصت به هذه

* مادة المحاضرة الاولى من محاضرات معهد الآداب الشرقية لسنة ١٩٤٠ - ١٩٤١

في فرح « التاريخ والآثار القديمة » .

البلاد من تدرج المناخ بتدرج المناطق صاعدة من الساحل الى اعالي الجوزد ،
اصبحت وافرة الانتاج لمختلف الفواكه ، ومتنوع الحضار .

هذه حالة الارض الطبيعية التي علينا ان نشعرها . وقد يكون في درس
التاريخ القديم ما يولينا العبر في هذا الاستثار . ولهذا رأينا ان نستفيد اليوم
من التاريخ اليوناني - الروماني ، فندرس كيف عرض القوم لمشكل الارض
والزراعة وكيف عملوا على حلّه .

ولنشر ، بادى ذي بدء ، الى حلّ سطحي كثيراً ما اتخذ به بعض
الكتاب ، كلما عرض لهم هذا البحث ، فأجابوا مرعين بهذا الجواب الموجز :
« كانت سورية أهراء رومة في العصور القديمة . »

وهو جواب لا تردّد في الحكم عليه بانه يكتنفه الخطأ ، اذا ما أتينا
على إطلاقه .

فعلينا اذا ان نستند الى الوثائق الراهنة في تعيين دور لبنان وسورية الزراعي
في العصر اليوناني - الروماني وتعيين اهتيتها الاقتصادية الصحيحة . وذلك :

أ - بدرس منتجاتها الزراعية ، و٢ - بوصف طريقة تقسيم الارض فيها .
قلت ان سورية لم تكون أهراء رومة فتؤمن اعاشة عاصمة الامبراطورية ،
كما يتوهم البعض . ذلك انا نعرف « أهراء رومة » على تتابع الحطب ، وهي
الاراضي الايطالية اولاً ؛ ثم - هزل صقلية ؛ ثم افريقية بعد الحروب الفينيقية ؛
واخيراً مصر .

ويرى ارباب الاختصاص في هذا الشأن ان افريقية ، في القرن الاول
للمسيح ، كانت تردد الى رومة ثلث حاجتها من القمح . وكانت مصر تقوم
بثلث الثاني . اما الثلث الثالث فكانت تنتجها سبيل ايطالية ، واسبانية ،
وغالية^{١)} . ولا نرى ذكراً لسورية في الصادرات السنوية المنظمة في سبيل
« الاعاشة المدنية » او اعاشة العاصمة ، إلا بعد عهد قسطنطين الكبير ، وبعد
ان انتقل مركز الامبراطورية من رومة الى ضفاف البوسفور . عندئذ يصبح
الفرض ان ملاحى الساحل الفينيقي كانوا ، ولا بد ، من جملة اولئك « الملاحين

Haywood, *An Economical Survey of Ancient Rome*, IV, *Africa*, p. 42-43 (1)

الشرقيين ، الذين عهد اليهم قسطنطين في نقل القمح والزيت والحمر الى القسطنطينية^(١). اما قبل هذا العهد فلم تصدّر بلادنا القمح الى رومة وما وراءها من الولايات الغربية في الامبراطورية ، إلا مرة بعد مرة بطريقة غير منتظمة ؛ كما سنرى .

واذاً فلم يكن دور بلادنا الزراعي ضرورياً في اقتصاديات الامبراطورية الرومانية . ولكن من الانصاف ان نقدره حتى قدره .

ان لم تصدّر هذه البلاد الى رومة بطريقة منتظمة ما يفيض من منتجاتها الزراعية ، لا يعني هذا ان المنتجات لم تقض عن حاجتها ، او ان الأرض كانت تتشر في إعالة اهلهما فقط . فانّ قسماً مهماً من محصول الحبوب كان يُحفظ لاعاشة الجيش الروماني المقيم في سورية . وكان هذا الجيش يتألف من اربع كتائب ، وما يعادلها من الجيوش المساعدة ، فيبلغ ٥٠,٠٠٠ جندي في زمن السلم . اما زمن الحروب المتتابعة ضد الفارثيين ، ثم ضد الساسانيين ، فكانت تأتي النجيدات من الاناضول ، وإيريه ، وميزرة ، وجرمانية ، اي من جميع الحدود التي كانت تسمون فيها الجيوش فتكسب دربةً وشجاعة . وكان على البلاد الشامية ان تقوم باعاشة كل هذه الجيوش .

وفضلاً عن إعالة الجيوش ، كانت الحبوب السورية تُصدّر الى بعض الاسواق الخارجية ، لجودتها خاصة لا لوفرتها . ومن المفيد ان نشير هنا الى اهم منتجات البلاد الطبيعية .

وأولها القمح ، القمح الشامي الصلب المشهور . كانت مصر تستورد منه لتجدد بذارها فتجود منتجاتها^(٢) .

ولم يكن نادراً ان تستورد بعض الولايات الغربية من محاصيل القمح

Cod. Theod., XIII, 5, 7 ; XIV, 22. Cf. Walting, *Et. hist. sur les corporations prof.* II, p. 10 ; Rostovtzeff, P. W. sv. *Frumentum*, col. 129, 49.

Heichelheim, *An Econ. Survey*, IV, Syria, p. 128, n. 1 ; Johnson, (*ibid.*), II, p. 1, n. 3 ; il s'agit de *Pap. Lond.* II, n° 256 = Wilcken u. Mitteis,

Cbre:tomalbic, n° 344.

الثامي في ازمان المجاعة ، او في سني قلة الانتاج في بلادها . وقد يكون من دلائل هذه العلاقات التجارية ، تلك الصفيحة الفضية المكتشفة في دير القمر ، والمشملة على رسالة منقوشة من المدير يوليانوس الى ملاحه مدينة أرل من بلاد غالية^{١)} . وقد كان لهؤلاء التجار الملاحين محطة في بيروت ، في اوائل القرن الثالث للمسيح^{٢)} . فنستفيد من هذه الصفيحة المكتشفة انهم كانوا يشترون القمح وسائر بضائهم في اسواق البلاد المنتجة نفسها .

والى العهد نفسه يرقى ، في ما يظهر ، رقيم مكشف في بصرى اسكي شام نقله الملازمان قنستي وبونديه وارسل الي بنسختين منه الاب مانكل (Masclé) المرشد الروحي لجيوش جبل الدروز . اما نص الرقيم فتقدمة .
 موزة باللفة اللاتينية نقشت على هيكل من الحجر الكلسي :

Mercu
 rio Aug (uesto)
 [S] acrum
 [T] husdr .
 [i] tani
 Gen (io) Col (oniae)
 s (uae) (f) (ecerunt)

وترجمتها :

تقدمة (مرفوعة) الى مركور اغسطسوس .
 اهل تيدروس (رفعوا هذا الهيكل)
 الى شنيع مستمرهم . «

واما رافعو الهيكل فهم بعثة ارفدتها مدينة تيدروس من اعمال تونس — واسمها اليوم الجيم — وهي مدينة اشتهرت بتجارة القمح طول العهد الامبراطوري . ولا يخفى ان وجود هذه البعثة في منطقة تبعد عن بلادها ، بل عن ساحل البحر ، بعد بصرى ، لا يمكن شرحه الا بالرغبة في مشتري القمح من حوران المعروف بجوده وغلالة . وما يجدر بالذكر رفهم الهيكل

CIL, III, 1465^a (1)

A. Grenier, *An Econ. Survey*, III, p. 478 et n. 55 (2)

الإكرامي لمركز الجامع صفتين مهنتين في نظر البعثة التجارية . فهو شفيح اهل تيدروس ، اي حامي مدينتهم ، وهو اله التجارة الذي يشهد صفقات البيع والشراء . ومن المحتمل ان يكون هؤلاء التجار دفعوا له هذا الهيكل بعد ان نجحت وفادتهم فاشترىوا باسماء مرافقة ما كانت تحتاج اليه مدينتهم من حبوب ، على اثر موسم ما حل بسبب ما كان يصيب افريقية الرومانية من جفاف .

٥

ولا تنفرد الرقم الكتابية بالدلالة على محصولات بلادنا الزراعية . بل هناك عدد من الآثار المصوّرة والمنحوتة اشارت الى بعض هذه المنتجات الاشارات الصريحة . فرأينا منها التمح والنّب يُبلان ، بل يجندان ، في مقوشات بليك . فتعرّش الكرمة على واجهة هيكل ديونيزوس ، وتلف اغصانها على بنات البحر ، وصغار الآلهة ، بل تلف على من ترضع الجدي رمز الإله . وترقع سنبلة القمح مقرونة بورق الخشخاش ممثلة خصب السهول المقترن برمز الرقاد الابدي الذي يستولي على ادونيس ، ولا يرحم شبابه الجليل . (الرسم ١)



الرسم ١ - من مقوش الباب في هيكل ديونيزوس في بليك



الرسم ٢ - قطعة نقد ترقى الى القرن الثاني قبل
المسيح وتمثل الاله الدمشقي حداد حاملاً لآييده
اليسرى سنبلة ضخمة

قطعة نقد فضية ترقى الى العهد اليوناني ، وتمثل الاله حداد الدمشقي حاملاً بيده
اليسرى سنبلة ضخمة ، دالاً على انه هو الاله الذي يضمن للبلاد غلتها المهيمة .
(الرسم ٢)

ولقد كان للخمر الهه الخاص ، او شقيقه المتحامي ، على الاقل في حروران وفي
ما ندعوه اليوم جبل الدروز . وهو دوساروس . اكتشف له تمثال جميل
من الحجر البركاني . وآلفت الميتولوجية السورية حلقة عن المارك بينه وبين
ليكورغ ، الاله الذي لا يشرب خمرأ . وقد مثل قروباً منه تمثال بروترزي ،
لحمار يحمل يخرجاً موضعاً على ظهره دون جل . والى جنبه قطعة خزفية تمثل
جملاً مجتلاً . وقد يكون حمله من النعب الذي لا يزال ينتقل ، على ظهور
الجمال ، حتى ايامنا هذه ، فيشهد المسافر في شمالي سورية قطاراً لا نهاية له
من الجمال الناقلة النعب من السفيري الى حلب مثلاً .

على ان مناطق سورية والساحل الفينيقي لم تكن تصدر النعب في ما مضى ،
بل كانت تهتم خاصة بتصدير الحمر . فكانت الجرار المملوءة في بيروت
واللاذقية تصل حتى مرافق البحر الاحمر . ولا يفسد محمولها بفضل ما كان فيه

من كمية الكحول القويّة^{١١} . ومن المدن التي اشتهرت بجمورها حلبون ، قرب دمشق ، وأفامية ، وصور ، وغزة^{١٢} . وكذلك خمور اندرون ، او الاندرين ، في بادية الشام^{١٣} ، كانت تتجاوز شهرتها حدود هذه البلاد . ويقال الامر نفسه عن خمور ضفتي الفرات . وقد كشفت حفريات دورا - اورپوس ، على ضفة هذا النهر ، عن معاهدة يشير نضها الى ان احد رجال الجيش الروماني المااون ، اقام منزله قريبا من مضب الحابور ، واشترى كرمًا فيه ٦٠٠ كعب من الريش يبلغ ١٢٥ قطعة من الفضة^{١٤} .

واذا فان الكروم كانت منتشرة في انحاء البلاد جميعها . حتى ان الامبراطرة اصدرت عدداً من القوانين في سبيل حمايتها من الرعاة واللصوص خاصة .^{١٥} وقد يمكننا ان نتصور مظهر بعض هذه الكروم باستنادنا الى قطعة من الفينساء . اكتشفت في شرشل من بلاد الجزائر ، في نيسان ١٩٢٥ ، ومثلت بعض الاعمال الزراعية ، ومظاهر الحقول . وقد ارثها الاستاذ جان بيرار بأول القرن الثالث للسيح او متحفه . (الرمضان ٣ و١)

زى في القسم الاسفل من هذه الفينساء . طريقتين لغرس الكروم والعناية بها : ١ طريقة التعريش التي ترتفع بها اغصان الكرمة على صقالة عالية . ٢ وطريقة الكروم المنبطة او الراطنة . وقد كانت الطريقة الاولى واسمة الانتشار حول الدور في المناطق الشامية جميعها ، كما لا تزال زاها في القرى اللبنانية حتى يومنا . الا ان العناية كانت تبلغ فيها حد الاتقان ، في تلك الدارات او المنازل الفخمة التي لا يزال المسافر يرى اطلالها ماثلة في جنوبي غربي

Peripl. mar. Erythr. 6, 49 = *Geogr. Lyr. Min.* I, 293 (١)

Heichelheim, *An Econ. Survey.* IV, p. 138-140 (٢)

Noeldeke, *Sitzungsber.* ; Vienn. CXL, 1899, VII, 31 s : d'après Honigman, *PW, Syria*, col. 1677

Pap. D. 101 : *The Excavations at D. E., Report VII-VIII*, p. 433 ss. (٣)

(٤) راجع في حماية كروم حوران : *GRR*, III, 1341 ؛ وكروم هيرابوليس فرجية :

Mon. As. M. Ant., IV, 297 ; Robert, *Et. Anatol.*, 104 ; apud Broughton,

An Econ. Survey., IV, p. 687



الرسم ٣ - قطعة من فينسا. شرشل في الجزائر (القرن الثالث للنسج)
تقلد اعمال الحراثة والزرع

حلب وفي شمالها الشرقي ، فيشاهد الصفوف المتتابعة من الركائز الحجرية تحيط بالماشي والمسرات او تجذب الاملاك المتاخمة . والى جميع هذه الركائز كانت تستند الاعضاء الخشبية ، وعليها تعرش اغصان الكرم . نذكر منها خاصة ما رأيناه في معز ، قرب الطريق الآخذة من حلب الى انطاكية . وهو سور بستان قديم ، لا تزال الركائز الضخمة تحيط به . وله باب مزخرف بنقش هندسي بارز . ولنعد الى فينسا . شرشل . فترى فيها مشهداً للحراثة بين الزيتون . يقوم بها الثيران ، لأن الخيل لم تتخذ لهذه الاعمال قبل القرون الوسطى . ويشاهد في اعلى الرسم ما يُعرف « بالشق » وهي الحراثة الحرفية ، فترى فيها الفلاح يرتقي بقله على المحراث ليمتد الشق في الأرض ، بينما تزي في المشهد الأسفل ، نوعاً ثانياً



الرسم ٤ - قطعة من فينساء - شرشل تمثل بعض اعمال الكرمة

من الحراثة ، ينصح به المزارعون الرومانيون ، بناء على قول قارون وپلينيوس ، بعد القاء البذور . ولهذا مثلت الفينساء الزارع يتقدم المحراث .



ذكرتنا فينساء شرشل ، اذ صورت لنا الحراثة بين الزيتون ، بما لا تزال نشاهده في يومنا هذا ، في حقول الزيتون الممتدة غربي بيروت . بيد ان زيت الزيتون لم يكن يصدر من هذه البلاد في العصر الذي عشنا امره . ذلك ان الزيت اللبناني والسوري كان لا يبلغ جودة زيت ايطالية او اسبانية ، فكان عاجزاً عن مزاحمتها في الاسواق الرومانية^(١) .

(١) Heichelheim, *op. cit.*, p. ١٣٦-١٣٧

بيد ان بلادنا كانت تصدر الى رومة كثيراً من النباتات العقاقيرية والعطرية مع متحضراتها كالناردين ، والبلم ، والمر ، والميعة^(١) وكذلك كانت تصدر، شأنها في العصور الفنيقية ، الاصماغ المستخرجة من الصنوبر والسرو ، ومن اشجار التريينت في منطقة دمشق^(٢) . ويجب ألا ننسى ، في سلسلة الصادرات هذه ، خشب البناء القطوع من غابات لبنان . وسنعود الى الكلام على هذه الغابات . ولم تكن اكثر هذه المنتجات من نبات بلادنا الطبيعي . انما كانت تدرس ويُعتنى بها وفقاً لطرق دقيقة منظمة ومدونة منذ العصر الهليني . ولا يخفى ان الرومانيين اتخذوا مبادئ الفن الزراعي عن مزارعي الشرقين . وذلك انه بعد ان تغلبت رومة على قرطاج ، شاءت ان تستفيد من مزارعها ، فامر مجلس الشيوخ الروماني ، ان يُنقل الى اللغة اللاتينية مؤلف ماغنون الشهير في الزراعة ، الذي كُتب اولاً على الأرجح باللغة الفنيقية - القرطاجية ، ثم نُقل الى اليونانية ، ومنها الى اللاتينية^(٣) . وكذلك استفاد الرومانيون من جميع الاساليب المعروفة في الزراعة اليونانية .

ويمكن القول نفسه عن الفواكه والثمار الشامية التي جرب الرومانيون ان ينقلوا غرسها الى بلادهم ، فيبلدوها . نذكر منها الخوخ الدمشقي^(٤) ، ونوعين من التين ، والدراغن ، والمشش ، وقد لا يكون هذا اصيلاً في الارض الشامية الا انه كان متبلداً فيها في هذا العصر^(٥) ؛ والفستق الذي نقل غرسه من بلاد الشام ل . فيتلوس ، والد الامبراطور المعروف بهذا الاسم ، عندما كان والياً على سورية على عهد طياريوس^(٦) . ونذكر اخيراً نوعاً من الفجل السوري وآثر من

Scheffer-Boichorst, p. 529 (١)

Heichelheim, p. 134-135 (٢)

Columelle, *De agricultura*. (٣)

Pline, *H. N.*, XIII, 10, 51 (٤)

Friedlaender, *Sittengesch.*, p. 307, d'après Helin, *Kulturpflanzen u.* (٥)

Hanstiere in ihren Uebergang, (1870: 7^e éd. 1910)

Helin, p. 416 (٦)

البصل الممتاز دُعي في رومة « إيشالوت » (échalotte) وهي نسبة محرقة اسقلان ، اصل منبته .^(١)

ونقل الرومانيون كذلك الى ايطالية فن غرس الاشجار المشرة وتقليبها ، مع مبادئ زراعة الخضراوات . وقد كان معروفاً عند القدماء ان فن البساتين وما يقتضيه من عناية دائمة تظهر خاصة بالري المنظم انا كان من خصائص بلادنا ولهذا نقل عن پلینوس : *Syria in hortis operosissima ; unde venit in proverbium Graecis : Multa Syrorum opera.*

ومناه : « ان سورية تم اشد الاهتمام بالاعتناء بساتينها حتى ضرب في ذلك المثل عند اليونان فقيل : ما اعظم اعمال السوريين ! »^(٢)

وعلى هذا فقد كان اليونانيون اذا ما تأملوا بساتين صور وصيدون ، يفكروا باعمال هر كول . كما تتكلم نحن اليوم عن اعمال الرومانيين ، اذا ما وقفنا على آثار القناطر والاسداد القديمة . وكان من فضل هذه الاعمال ان ازدهرت ازدهاراً عجيباً مظاهر الزراعة التي خُصت بها بلادنا منذ العصور القديمة . وكما اخذ عن الرومانيين زراعة البساتين ، وتغريق الارض ، واستعمال السهاد ، وتنظيم الري ، وكل ما يتعلق بنظرية الزراعة العلمية ، افادونا بنشاطهم البنائية في سبل تغريز الزراعة . حتى ان ارباب السلطة في عصرنا الحاضر ، اذا ما ارادوا توسيع المناطق الزراعية المروية في سورية ، لم يكن عليهم الا ان يهتموا تنويع السليمة مثلاً ، او ان يرقموا السد الروماني في بحيرة حمص .

☞

وغني عن البيان ان الاساليب الزراعية لم تكن تطبق على الطريقة نفسها في مناطق تختلف فيها الاراضي اختلافاً بيناً من حيث التكوين ، والموقع ، والارتفاع . وبسبب هذه الارضات الطبيعية وبعض العوامل التاريخية ، قُست الاراضي طبقات متعددة . على انه يجب القول ان الفرق بين الاراضي الجافة

Pline, H.N., XX, 16, 23 ; cf. Scheffer-Boichorst, p. 523 et Friedlaender, (1

p. 307

Pline, H. N., XX, 16. 33 ; Scheffer-Boichorst, p. 523 (2

والاراضي المروية ليس تماماً بارزاً كما هو في مصر مثلاً. ذلك ان بلادنا تستفيد من مناخ معتدل لقرنها من البحر ، ثم لما تفيدها سلسلة الجبال اللبنانية وسلسلة الامانوس من ايقاف الغيوم ، فتكثيفها ، فالعمل على هطول الامطار. ولهذا كانت انواع الاراضي فيها تشبه المعروف في آسية الصغرى وافريقية الرومانية :

١ مناطق الكلاخ او المراعي ومزدرعات الجرب . وهي ممتلكات فيسحة في الجبال والمواقع البعيدة .

٢ مناطق المزدرعات المتنوعة وهي من نوع الملكية الوسطى .

٣ مناطق الحضراوات او المزدرعات الصناعية ، تقع قريباً من المدن والمحال للأهولة . ولنقل كلمة الآن عن الممتلكات الفيسحة والوسطى :

كل ارض من الممتلكات الفيسحة في سورية الرومانية ارث الملوك والآلهة . كان الملك في العهد الهليني يملك الاراضي الواسعة بفضل حقوق القاتح الغازي ، او بما كان يقوم به من زرع ممتلكات اعدائه ، او بفضل حقه الملكي فقط . وكان ، على القالب ، يسهر بنفسه على منتجات هذه الاراضي وكان اكثر الملوك والامراء ، في هذه البلاد ، من عمال رومة او عاملاتها ، امثال ارخيلاوس التبادوتي او هيروودس الجليلي ، يستحقون عن جدارة ما يتوله شيشرون مادحاً ديجوتار ملك غلطة : « *diligentissimus agricola et pecuarius* » ومعناه : « اوفر الناس اهتماماً بالزراعة والمواشي . »^١

تشهد بذلك مفروسات البلم التي استقدمها هيروودس من جزيرة العرب . وبلغها في سهل أريحا الحار المناخ . وكثيراً ما قام عبيد الملك ومواليه بتجربات زراعية من هذا النوع .

ويجدر بنا ان نذكر ، بعد الممتلكات الملكية والاميرية ، املاك المياكل والمابد . وقد كانت متعة الرقة على عهد الاحتلال الروماني . وكان الكاهن الأعظم ، المتيقن على مدى عمره ، يهتم بادارتها واستغلالها . وكثيراً ما كانت هذه المهنة وراثية ، فيقوم ابنا الاسرة الواحدة ، خلفاً عن سلف ، على ادارة

الارض المتدسة ، كما كانت الحال في هيراپوليس - بيبسكه ، او منبج الحالية ، بين حلب والقرات . وقد ورد عن هميس القديمة ، او حمص ، انها بعد ان تخلضت من ملكية اسرة - سيجراموس ، وكانوا من العرب المتصين ، ظلت في ابدي كباتها . وكذلك القول عن املاك رؤساء الأرباع في الجبل المقدس حمون ، او جبل الشيخ ؛ وعن املاك پوليسون ، وليرانياس ، وزينودور ، اصحاب كليس او عنجر في البقاع ، الذين نقشوا القابم على نقودهم فسمى كل نفسه « رئيس ربع وكاهناً اعظم » .^١

وفي غير بلادنا من المناطق الرومانية ، كبلاد الاناضول ، وافريقية مثلاً ، بيعت املاك الاسراء والمموك ، واملاك الهياكل باسم الشعب الروماني . فهل لاغتيال الرومانيين من ارباب الرساميل ، واعضاء مجلس الشيوخ ، أن يتلكوا الاراضي الواسعة . وانتقلت نهائياً الى ملك الامبراطور الخاص . اما في بلادنا ، اذا استئفينا ما زعمه البعض من وجود ملكية امبراطورية في الجليل الاعلى^(٢) ، فاننا لا نرى شيئاً من هذا النوع على عهد الامبراطورية الأولى . بيد انه كان في بلادنا نوع من الحجز او الاحتكار موضوعاً على بعض الاراضي . يشهد بذلك اكثر من مائة رقيم محفورة على صخور الجبل اللبناني ، من شالي غربي الهرمل الى المرتفعات القائمة فوق زحلة . وهي كتابات مهتة في دلالتها على هذا الحق الامبراطوري ، وليس من اختلاف في نصوصها ، بل تذكر جميعها حق الامبراطور وتردنه ببعض ارقام . وقد حلّ ارنست رينان واحدة او اثنتين منها رقتاً دون اختصار . وهذا نصها :

Imperatoris Hadriani Augusti-Artorum Genera quattuor, cetera privata.

ومناه : « ان اربعة انواع من الشجر تحفر الامبراطور هدريانوس - اغوستوس . اما سائر الانواع فلكية خاصة » .^(٣)

W. Wroth Br. *Musilias, Guialia, Cappad. a. Syria*, pl. XXIII, 11 ss. (1)

et pp. 279 sqq.

Jos. *Vita*, 13, 71 ; d'après Rostowzeff, *Sac. a. Econ. History*, p. 568, (2)

n. 30

Renan, *Mission de Phénicie*, p. 253 ss. et 858 B add. à la p. 279 = CIL, III (3)

والارقام التي تتبع هذا النص تدلّ ، على الأرجح ، على عدد الأشجار المحفوظة او المكتكرة في المنطقة

بقي السؤال عن هذه الانواع الاربعة ما هي ؟
يستند البعض الى نص ورد عن فيجيس^(١) ، فيستنجون ان انواع الشجر الاربعة المكتكرة للملك السلطة الامبراطورية انما كانت الاشجار الصالحة لصنع المراكب وهي : الشربين ، والصنوبر ، والسرو ، والعرعر . اما في لبنان فيجب ألا تنسى شجر الأرز .

وقد امكنا ، بماونة الاب جلاير ، ان ننفيد من رقم محفوظ في متحف الجامعة الاميركية ، فنلحق هذا الاحتكار بعملية واسعة النطاق قام بها الامبراطور هدريانوس لتحديد مناطق الغابات والمراعي^(٢).

اما تاريخ هذه الرقيم الحجرية فقد استخرجناه من درس حجر ضخيم منحوت على شكل الموشور ، ومنصوب قريباً من اللقوق ، في عقبة الجبل المؤدية الى السيونة فيعلبك . قادنا اليه احد اصدقائنا . الارض اللبنانية ، اسمد بك يونس ، فأمكننا ان نقرأ فيه :

على احدى جهات : *Imp(eratoris) Had(riani) Aug(usti) vic (ies) ou vic(enalibus)*
وسناه : « من الامبراطور هدريانوس المملك (اغوستوس) عشرين مرة »
او « في السنة العشرين للملك الامبراطور هدريانوس . »

وعلى الثانية : *C. Umbrivus*

Proc(urator) Aug(usti)

وسناه : ك. أومبريوس

وكيل الامبراطور

وعلى الثالثة : *Imp(eratoris)*

il(erum) salutati) p(rouit)

« من الامبراطور المنادى به امبراطوراً للمرة الثانية » .

(١) *Ex eupresso orgo et pinu domestica, sive silvestri larice et abiete praecipue liburna contextitur.* (Veg. V, 4)

(٢) راجع Rostowzeif, *Klio*, 1911. p. 387 ; MFO, 11, 1910, p. 209-215 ;

وأذا فإن الرقم يرقى الى السنة التاسعة عشرة من ملك الامبراطور هدريانوس ، وهي السنة التي نودي به فيها امبراطوراً للمرة الثانية ، وذلك بعد ان قامت الثورة اليهودية الثانية ، اي في السنة ١٣٤ م.^{١)}

وان تكن رُقم هدريانوس — التي يشتهر رينان ، في عهده ، ببطاقات زيارة تركها الامبراطور في أنحاء لبنان — هي الأثر الوحيد في الدلالة على الملكات الاميرية في بلادنا ، على عهد الامبراطورية الاولى ، فانه مما لا شك فيه ان امبراطرة القسطنطينية من القرن الرابع الى السادس كان لهم الاملاك الفسيحة يديرونها بانفسهم او بواسطة موظفي « الملكات الخاصة » .

وكانت هذه الاملاك الامبراطورية مجاور ، في ذلك العهد ، كثيراً من الاملاك الخاصة نتجت من ضم عدة ممتلكات خاصة قام بها الفلاحون مجتمعين حول سيد قوي راغبين في ان يعينهم ويحميهم . من هذه الملكات ثروة ذاك الشيخ الانطاكي الذي يصفه القديس يوحنا في الذهب ، في اواخر القرن الرابع ، فيقول كان له الاراضي الفسيحة فيها من عشرة الى عشرين متراً ، مع التصور او الدارات والحمامات الخاصة ، وفيها من الف الى الفين عبد.^{٢)} و ١٠ آلاف من الموالى^{٣)} .

على ان استثمار الاراضي بواسطة العبيد كان امراً نادر الوقوع في سورية الرومانية . ولم يكن يُرى هناك الا نادراً قصور او دارات شبيهة بقصور كنيانية الجامعة بين المتزهات ومراكز الاستثمار الزراعي ، والتي كان يشتغل فيها مئات

(١) اطلب ، في تاريخ هذه الحادثة ، W. Weber, *Unternehmungen z. Gesch. des Kaisers Hadrianus*, 1907, p. 180, n. 643. d'après v. Rhoden, PW, I, 514 ; Weber, p. 276, n. 1015. Cf. aussi Cagnat, *Cours d'épigr. lat.*, p. 196.

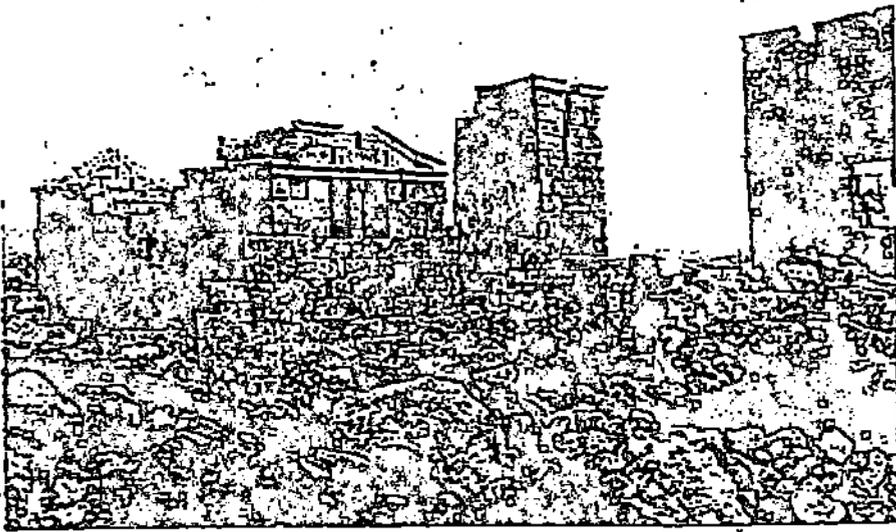
ويجب القول ان ك. أومبريوس او كايوس أو جريوس هذا لم يذكر في *Pros. imp. rom.*, III بل هناك ذكر لرجل اسمه أومبريوس بريوس كان ملائكاً في ليغورية على عهد تريبانوس (*ibid.*, p. 468, n. 596)

In *MI.*, 63, 4. Cf. *Via parvae Melaniae, Hist. Laus.*, 109 = PG., (٢ XXXIV, 1230

Heichelheim, *An Econ. Survey*, IV, p. 165, n. 16 (٣

الميد ، بعضهم متقدرون بلاسلهم .^{١١}
 واذا جاز لنا ان نذكر شيئاً بعيداً لبعض هذه الدارات الواقعة على شاطئ
 البحر ، فاننا نذكر ما كشفته الحفريات مؤخراً من آثار دارة في الجناح من رمال
 بيروت . وقد كان من نصيب المتحف الوطني اللبناني ان يحتفظ بقطع النيفس .
 التي كانت ترينها .

وفي الداخلية آثار لدارات سورية ، كانت تُقام عادة في منطقة يحصنها سور
 يدفع عنها غارات البدو . واننا نرى اكثرها منتشرة في شمالي سورية بين حماه
 وإدلب ، وحلب ، وانطاكية . واشهرها دارات جرادة على ١٥ كيلومتراً شمالي
 معرة النعمان ، على الطريق من حماه الى حلب . (الرسم ٥)



الرسم ٥ - بعض آثار دارات جرادة القديمة في الغرب من معرة النعمان

وشبيهة بها الدارات القائمة آثارها في ناحية البارة من جبل الزاوية . نرى في

Rostowzeff, Roem. Mitt. XXVI, 1911, Die hellenist-roem. Architectur- (1
 landschaft, pl. IX, et p. 94

احداها سوراً يحيط بعددٍ من البنايات . منها منزل الكن ازدانت واجهته بعدد من الاعمدة الرشيقة في رواق عالٍ . والى جنبه الاصطل . وفي جهة ثالثة بنايات المرافق ، وبيت الحولي او الوكيل . اما الجهة الرابعة ففيها البستان ، ولا تزال ترى فيه ممرشات الكرم على الركاتر .

وقد تسأل العلماء ، امام هذه الآثار الفخمة في البارة وسرجيلية : ألم تكن منازل صيفية لكبار المترين في انطاكية ؟

وان لنا في بعض النصوص القديمة اوصافاً لمساكن زراعية واتمة وسط الحقول . كانت تُدعى في العهد الميليني « بارس » . وهي لفظة محرّفة عن اسم سامي قديم دخل اللغة اليونانية ، ومعناه « البيت المتين » او « المنيع » . ثم تحرّف الاسم من جديد فصار « برغوس » باليونانية ، واستخرج منه الاسم اللاتيني « تيرا بريجوم » ومعناه « البيت المربع الابراج » . وواضح ان الاصل السامي لكل هذه الكلمات هو ما يفيد معنى « البرج » بالعربية .

هذه التصور البرجية ، او المربعة الابراج ، كانت على انتشار يُذكر في سهول سورية الرومانية . وعننا اجند الامويون انشاء قصورهم في الصحراء او « يواديم » المشهورة من امثال المشق وقصر الحير وغيرهما .

على اننا لا نرى في الوثائق المعروفة ما يفيدنا وصفاً دقيقاً لهذه القصور المربعة الابراج التي كان يسكنها كبار الملاكين في سورية . فاضطردنا الى الاخذ بقطعة فيفاء تمثل قصرًا من هذا النوع في قرطاجنة . وهي قطعة معروفة بفيفاء السيد يوليوس . (الرسم ٦)

نرى على واجهتها برجين يرتفعان من الجانبين . وتتصوّر برجين كذلك في الجهة الموازية . اما الرواق الاعلى فمهدنا به في كثير من الابنية الشرقية ، كقصر قطينون مثلاً . واذا ما اجتاز الزائر الرّجاج العالي المنحني القوس ، وجد نفسه في ساحة داخلية فسيحة ، قامت حولها البنايات التي لا يرى منها في الصورة الا سقفها ذات التّباب . وتتخلّل بينها الحمام الخاص بموقده وغرفة الباردة والفاخرة . وعلى الرغم من حالة الفيفاء السيّئة ، يترّ الناظر عدّة مشاهد تمثل الاعمال الزراعية تختلف باختلاف الفصول . فيرى ، الى اعلى الزاوية من الشمال ، جمع الزيتون في فصل

اثنان ، ثم خادماً حاملاً اثنتين من البط البري . والى اليمين يظهر راع مع كلبه ، وورائه في سطح بعيد ، كوخ من الاغصان المغطاة بالطين ينام فيه الغلاخون . وفي اسفل النيسا ، من جهة الشمال ، وسط الازهار ، تظهر خادمة تقدم عقداً الى ربة المنزل . ويقابلها الى اليمين صاحب الدار جالساً ، يستقبل رسولاً حاملاً اليه اوزتين هدية من احد الجيران . نعرف ذلك من الرق المنشور في يد الرسول ، وقد تضمن كتاب الاهداء ، وظهر عليه اسم المرسل اليه : dom (ino) [I (io)] IV « السيد يوليوس » . وفي الزاوية الاخيرة ، من جهة اليمين ، خادم يحمل سلّة فيها فواكه الحريف .

•

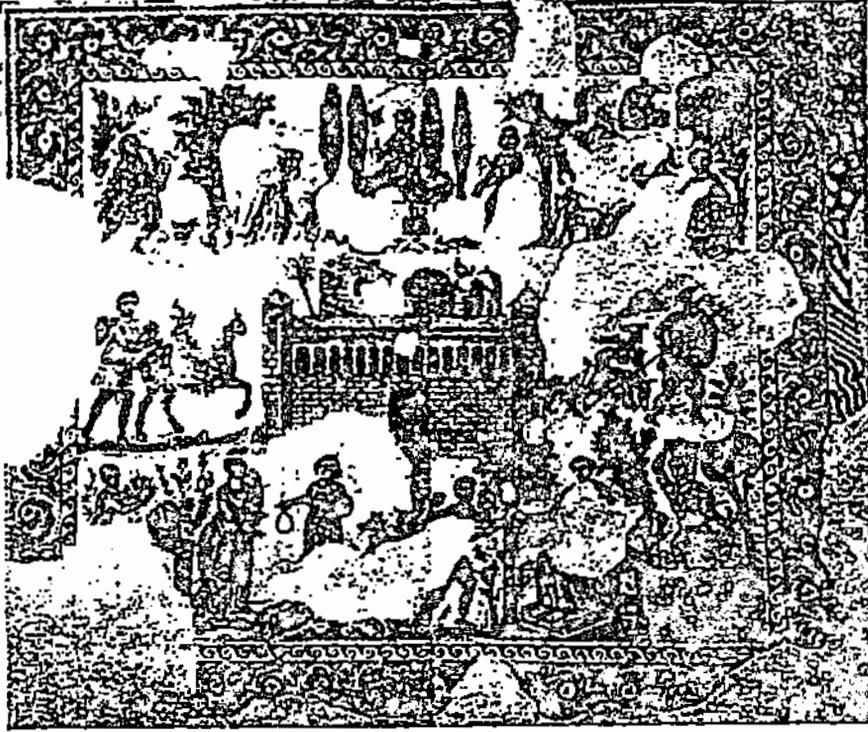
اما الذين كانوا يشتغلون في هذه الاراضي فمن العملة الأحرار ، لا العبيد . انما كانوا قرا . لا يكادون يشتغلون في شي . عن فلأحي سوربة الداخلية في يومنا هذا وكان يديرهم ويدربهم ذور الثقة من رجال الملأك ، سيد الأرض ، موالي كانوا او عبيداً . وكان للامبراطور وكلاء . على املاكه الخاصة ، كما تقدم في ذكر كايوس أومبريوس الذي نقش اسمه على حجر القلوق .

وكان لحاحب الأرض السلطة المطلقة على املاكه وعلى من يشتغل فيها . كما كانت سلطة الاغرات على اراضيهم وفلاحيهم ، الى الأمس ، في سوربة الداخلية . وقد كُشف في جليل - بطم ، على عشرين كيلومتراً شمالي صور ، حجر تذكاري لإقامة حاجز حول بركة القرية تنفيذاً لأمر حاكم المنطقة او امر الامبراطور . اما ما يبيننا فهو نص المحضر الذي يشير الى بناء الحاجز ، قال :

« وفقاً للقرار المقدس ، أُنقلت البركة بماجز وأصلحت على عهد الملأك كلوديوس بينوس ، بناية نريس ابن وعبد بينوس المذكور . » (١)

وجدير بالذكر ان من يُشاد باسمه في هذا الرقيم ليس الامبراطور ، ولا الروالي ، بل الملأك صاحب الأرض .

•



الرسم ٦ - قطعة من القيسية، نقش قصر السيد يوليوس الروماني في قرطاجنة

هذا ما امكنتنا جمعه في وصف الحالة الزراعية في سورية ولبنان على العهد الروماني . وهو مشهد ناقص ، يفتقر الى الكثير من المعلومات في اظهار ما كان يفيده الملاكون والمزارعون ، مثلاً ، من حالة الأمن العام ، من « السلم الروماني » المشهور ، ومن ضمانة الاستقرار في الملكية ، الناجمة من تأسيس اعمال المساحة والتحديد الرسمية منذ عهد السلوقيين .

يبد ان هذا المشهد ، على ما فيه من النقص ، يبدو جزيل الفائدة . اذ يظهر لنا ما امتازت به الزراعة من ازدهار في بلادنا اذ ذاك . وقد لا نخطئ اذا قلنا ان فلاح ذاك العهد كان اوفر حرية ، فاكثر انتاجاً ، فأيسر حياة من الفلاح السوري في يومنا هذا . كان له كرمه الخاص وزيتونه الخاص . وكان

الملاكون يهتمون بازدهار الزراعة ، وتحسين حالة المزارعين اكثر من اهتمامهم برعي الأموال التي يملكونها فلاحهم . فلا عجب اذا ان يكون سكان هذه البلاد قد بلغوا اذ ذاك ، وفقاً لادقّ التخمينات ، ضعف ما يبلغونه اليوم في المنطقة نفسها . وان من شاهد ، في سهول سورية الشمالية خاصة ، بقايا الآبار والنجارات ، واطلال معاصر الزيت والحجر ، وآثار المزارع والكنائس الدارسة ، لا يناله شك في صحة هذا القول .

وقد يعود لبنان وسورية الى ازدهارهما الزراعي فيعيشان في رخاء على شريطة ان تتعاون السلطات العامة وكبار الملاكين في عمل مخلص مشترك .

